حرب المئة عام على فلسطين
قصة الاستعمار الاستيطانى والمقاومة
١٩١٧-٢٠١٧

سحر عبد الرحيم
مدير تحرير دورية
آفاق عربية وإقليمية

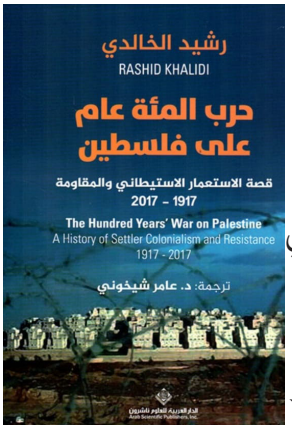

المؤلف / رشيد الخالدى
ترجمة / د. عامر شيخونى
عدد الصفحات / ٣٦٠ صفحة
دار النشر / الدار العربية للعلوم ناشرون
نبذة عن المؤلف: رشيد الخالدي هو مؤرخ فلسطيني أمريكي ولد عام ١٩٤٨ يعمل برفيسور للدراسات العربية الحديثة في جامعة كولومبيا، ومديراً لمدرسة الشؤون الدولية والمحلية التابع لمعهد الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا، له العديد من المقالات فى صحف نيويورك تايمز، ولوس أنجلوس تايمز وغيرهما، من أشهر مؤلفاته كتاب(الهوية الفلسطينية: بناء وعي قومي حديث) في عام ١٩٩٧ وهو أكثر كتبه تأثيراً وانتشاراً.

شغل رشيد الخالدي كرسي الأستاذ الراحل إدوارد سعيد للدراسات العربية في قسم التاريخ بجامعة كولومبيا، عملَ في السابق رئيساً لرابطة دراسات الشرق الأوسط، وكان مستشار الوفد الفلسطيني في مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية المنعقدة في الفترة ١٩٩١-١٩٩٣، وهو حالياً رئيس تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية.

الكتاب عبارة عن ستة فصول ومقدمة وخلاصة، فى المقدمة يسرد المؤلف جذور عائلة الخالدى فى فلسطين باعتبارها واحدة من أعرق العائلات ولديها وقف بالقرب من المسجد الأقصى، ومكتبة الخالدى التى تضم

أكثر من ١٢٠٠ مخطوطة أغلبها باللغة العربية، وبعضها بالفارسية والتركية العثمانية يرجع أقدمها إلى بداية القرن الحادى عشر، كما تضم المكتبة ألفى كتاب عربى من القرن التاسع عشر وأوراق عائلية متفرقة، ومن بينها رسالة أرسلها يوسف ضياء الدين باشا الخالدى - العم الأكبر للمؤلف – والذى كان موظفاً مهماً فى الحكومة العثمانية إلى تيودورهرتسل زعيم الحركة الصهيونية وصاحب كتاب «الدولة اليهودية» الذى دعا فيه لإنشاء دولة لليهود، وبحكم منصبه كمحافظ لمدينة القدس فقد شاهد الصراع مع السكان المحليين الذى نشأ فى السنوات الأولى لنشاطات الصهيونية الوليدة بدءاً بوصول المستوطنين الأوائل من اليهود الأوربيين فى أواخر القرن ١٩. وكان أهم ما ورد فى الرسالة: «فلسطين مأهولة بآخرين ولن يقبلوا استبدالهم بسهولة».

كتاب حرب المئة عام على فلسطين: قصة الاستعمار الاستيطاني والمقاومة ١٩١٧-٢٠١٧ يسرد الواقع المعقد الذي آلت إليه القضية الفلسطينية بعد مرور قرن على وعد بلفور ويُركز رشيد الخالدي في كتابه على ست نقاط تحول في الصراع على فلسطين.

بداية من وعد بلفور سنة ١٩١٧ الذي حدَّد مصير فلسطين، ووصولاً إلى حصار إسرائيل لغزة وحروبها المتكررة على أهل غزة في العَقد الأول من القرن الحادي والعشرين. تُسلط هذه المراحل الضوء على الطبيعة الاستعمارية لحرب المئة عام على فلسطين، وعلى دور القوى الخارجية الذي لا يمكن الاستغناء عنه في شَن هذه الحرب.

يتناول الفصل الأول من الكتاب «إعلان الحرب الأول ١٩١٧-١٩٣٩» التغيرات التى شهدتها فلسطين فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية قبيل الحرب العالمية الأولى، ونشوء طبقة تجارية برجوازية وطبقة عاملة مدنية، بالتزامن مع نشوء وتطور الشعور بالهوية لدى جزء كبير من السكان، كان يعيش فى فلسطين تحت الحكم العثمانى فى

الجـزء الـول مـن القـرن العشريـن مجتمـع عـربى نشـيط وحيـوى يخـوض سلسـلة مـن التحـولات المتسـارعة مثلـما كانـت أحـوال كثـير مـن مجتمعـات الـشرق الأوسـط الأخـرى حولـه، إلا أن الصدمـات الخارجيـة القويـة كان لهـا تأثـيرات عميقـة عـلى المجتمعـات خاصـة عـلى شـعورها بالهويـة، فقـد ازدادت الامبراطوريـة العثمانيـة ضعفـا بعـد الهزائـم المتواليـة فى العديـد مـن الجبهـات، وقـد وجـد النـاس فى فلسـطين وكثـير مـن أرجـاء العـالم العربىأنفسـهم تحـت احتـلال جيـوش عربيـة، وفى غمـرة هـذه الصدمـة الكبـيرة ومـع نهايـة عـصر وبدايـة عـصر جديـد عـلى خلفيـة بائسـة مـن المعانـاة والخسـارة والحرمـان، سـمع الفلسـطينيون شـذرات متفرقـة عـن وعـد بلفـور، والـذى أطلقـه آرثـر جيمـس بلفـور وزيـر الشـئون الخارجيـة باسـم الـوزارة البريطانيـة فى ٢ نوفمـبر ٢٠١٧ وكان يتألـف مـن جملـة واحـدة :» تنظـر حكومـة صاحـب الجلالـة بعـين العطـف إلى إقامـة وطـن قومـى للشـعب اليهـودى فى فلسـطين، وسـتبذل غايـة جهدهـا لتسـهيل تحقيـق هـذه الغايـة، عـلى أن يفهـم جليـاً أنـه لـن يـؤتى بعمـل مـن شـأنه أن ينتقـص مـن الحقـوق المدنيـة والدينيـة التـى تتمتـع بهـا الطوائـف غـير اليهوديـة المقيمـة فى فلسـطين، ولا الحقـوق والوضـع السـياسى الـذى يتمتـع بـه اليهـود فى أى بلـد آخـر.» وقـد وجـدت الحركـة الصهيونيـة ومشروعهـا الاسـتعمارى الدعـم الـذى كان ينقصهـا مـن القـوى العظمـى وذلـك مـن خـلال مـا وفرتـه بريطانيـا ووعـد بلفـور حيـث حصلـت عـلى دعـم أعظـم قـوة فى ذلـك العـصر، وبعـد أن احتلـت القـوات البريطانيـة مدينـة القـدس فى ديسـمبر ٢٠١٧ منعـت نـشر أى أخبـار عـن وعـد بلفـور، ولم تسـمح لـل صحـف بالظهـور فى فلسـطين فـترة عامـين. ثـم توالـت الهجـرات اليهوديـة لفلسـطين خـلال الحـرب العالميـة الأولى وبعدهـا، وقـد بـدأ الفلسـطينيون تنظيم أنفسـهم سياسـياً عقـب الحـرب للمطالبـة بالاسـتقلال ورفـض وعـد بلفـور، وتفجـرت العديـد مـن المظاهـرات والاضطرابـات فى سـنوات ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٩، وقمعهـا البريطانيـون، لكـن الغضـب والاسـتياء العـربى ظـل مسـتمراً. وفى ١٠٢٢ أصـدرت

عصبة الأمم المتحدة قرار الانتداب البريطانى على فلسطين، والذى قدم هدية غير عادية للحركة الصهيونية بإدراج نص وعد بلفور مع تضخيم التزاماته. ثم تغير كل شيئ سنة ١٩٣٣ مع وصول النازيين للسلطة فى ألمانيا واضطهادهم لليهود حيث شهد عام ١٩٣٥ وصول أكثر من ٦٠ ألف مهاجر يهودى لفلسطين.

أما الفصل الثانى من الكتاب فقد حمل عنوان : إعلان الحرب الثانى ١٩٤٧- ١٩٤٨

يتناول هذا الفصل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١ فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ والذى نص على تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية كبيرة ودولة عربية أصغر ووضع مدينة القدس كمنطقة منفصلة دولية، وأدى لإجبار ٨٠٪ من السكان العرب على الهجرة من أراضيهم وممتلكاتهم بعد أن سيطرت إسرائيل على ٧٨٪ من فلسطين التى كانت تحت الانتداب، وقد أتت مرحلة جديدة من الهجوم الاستعمارى على فلسطين مع نهاية الحرب العالمية أطلقها وصول قوتين عالميتين جديدتين إلى الشرق الأوسط هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وقد أصبحت الولايات المتحدة فجأة قوة عالمية بل والقوة الأعظم، ووصلت السفن الأمريكية والقوات والقواعد إلى شمال أفريقيا وإيران والسعودية بدءا من ١٩٤٢ ولم تغادر الشرق الأوسط منذ ذلك الحين، وتدريجيا لم يعد لبريطانيا الصوت الحاسم فى فلسطين وأن الولايات المتحدة ستصبح العامل الخارجى الأقوى هناك، بل وفى بقية مناطق الشرق الأوسط. من جهة أخرى لم يستطع الفلسطينيون تشكيل تحالف عربى فعال، ولم يكن لديهم جهاز دولة حديثة على الرغم من مشاعرهم الوطنية القوية وتشكيل حركة وطنية كانت قوية بدرجة كافية لتوجيه خطر مؤقت على السيطرة البريطانية فى فلسطين خلال الثورة، وقد تمتع الصهاينة بدعم دولى قوى وواسع بالمقارنة مع ضعف وتمزق الحركة الوطنية الفلسطينية وكانت الدول

العربيـة التـى اسـتقلت حديثـاً هشـة ومصابـة بالتمـزق والخلافـات. ومـن ناحيـة أخـرى فقـد اسـتخدمت الحركـة الصهيونيـة معرفـة متطـورة بالسياسـة الدوليـة وذلـك بفضـل نشـأتها فى أوربـا ضمـن يهـود متعلمـين مندمجـين مثـل تيـودور هيرتسـل وحاييـم وايزمـان، كـما اسـتفادت الحركـة مـن جـذور عميقـة وعلاقـات وثيقـة بالولايـات المتحـدة تـم تأسيسـها منـذ عقـود.

يـرى الكاتـب أن قـرار تقسـيم فلسـطين كان بمثابـة إعـلان حـرب آخـر منـح وثيقـة ميـلاد لدولـة يهوديـة فى أرض عربيـة فى مخالفـة صريحـة لمبـدأ تقريـر المصـير الـذى أعلنـه ميثـاق تأسـيس الأمـم المتحـدة، وقـد تبـع ذلـك بالـضرورة طـرد عـدد مـن العـرب يكفـى لصنـع دولـة أغلبيـة يهوديـة، ومثلـما لم يعتقـد بلفـور بـأن الصهيونيـة سـتؤذى العـرب، يبـدو أن ترومـان وسـتالين عندمـا ضغطـوا لتمريـر قـرار التقسـيم رقـم ١٨١ فى الجمعيـة العموميـة لم ينتبهـوا أو أن مستشـاريهما لم يمنحـوا أيـة أهميـة لمـا يمكـن أن يحـدث للفلسـطينيين نتيجـة تصويتهـما. فى تلـك الأثنـاء لم يعـد خلـق دولـة يهوديـة هـدف بريطانيـا فقـد اشـتاطت غضبـا بسـبب الحملـة الصهيونيـة العنيفـة التـى أخرجتهـا مـن فلسـطين كـما أنهـا لم تعـد ترغـب فى اثـارة اسـتياء رعاياهـا العـرب فيـما تبقـى لهـا مـن امبراطوريتهـا فى الـشرق الأوسـط، ولذلـك فقـد امتنعـت بريطانيـا عـن التصويـت عـلى قـرار التقسـيم.

خـلال المرحلـة الأولى مـن النكبـة قبـل ١٥ مايـو ١٩٤٨ أدى نمـط مـن التطهـير العرقـى إلى طـرد وتهجـير وهـروب حـوالى ٣٠ ألـف فلسـطينى وتدمـير معظـم المراكـز العربيـة الحضريـة الرئيسـية الاقتصاديـة والسياسـية والمدنيـة والثقافيـة، ثـم جـاءت المرحلـة الثانيـة بعـد ١٥ مايـو عندمـا هـزم الجيـش الاسرائيـلى الجديـد الجيـوش العربيـة التـى انضمـت إلى الحـرب، حيـث أدت هـذه الهزيمـة لهجـرة أعـداد أكـبر مـن الفلسـطينيين، وطـرد ٤٠ ألـف فلسـطينى آخـر مـن منازلهـم إلى الـدول المجـاورة فى الأردن وسـوريا ولبنـان وإلى الضفـة الغربيـة وغـزة (اللتـان شـكلتا بقيـة ٢٢٪ مـن فلسـطين التـى لم تحتلهـا إسرائيـل) ولم

يسمح لأى منهم بالعودة وتم تدمير بيوتهم وقراهم لمنعهم من العودة، يرى الكاتب أن النكبة تمثل شلالا مستمرا فى تاريخ فلسطين والشرق الأوسط فقد غيرت أغلب مناطق فلسطين عما كانت عليه منذ ألف سنة وتحولت إلى دولة جديدة ذات غالبية يهودية كبيرة، وحدث ذلك التحول نتيجة مسارين: التطير العرقى الممنهج للمناطق العربية من البلاد التى تم احتلالها خلال الحرب، وسرقة الأراضى والممتلكات التى خلفها اللاجئون وراءهم، وقد -تم تغييب الفلسطينيين تماماً مع نهاية حرب ٤٨ ولم تذكر أخبارهم فى وسائل الإعلام الغربية ولم يسمح لهم بتمثيل أنفسهم دولياً إلا نادراً وتم تلخيص القضية الفلسطينية فى الأمم المتحدة وغيرها تحت عنوان « الصراع العربى – الإسرائيلى»

وانتهى هذا الفصل بالإشارة إلى العدوان الثلاثى على مصر والذى أدى لبزوغ نجم القوتين العظميين الجديدتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى مقابل أفول نجمى بريطانيا وفرنسا بعد أن اتخذ الأمريكان والسوفيت موقفا صارما ضد تحالف العدوان الثلاثى، وهدد السوفيت باستخدام السلاح النووى وحذرت الولايات المتحدة بقطع المساعدات الاقتصادية عن حلفائها.

الفصل الثالث : إعلان الحرب الثالث ١٩٦٧

يتناول هذا الفصل النكسة التى تعرضت لها اليوش العربية نتيجة تدمير سلاح الجو الاسرائيلى لغالبية الطائرات المصرية والسورية والأردنية على الأرض الأمر الذى منحها تفوقا جويا تاما وامتيازاً لقواتها البرية فى تلك المنطقة الصحراوية وتمكنت المدرعات الإسرائيلية فى ستة أيام من احتلال سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية العربية ومرتفعات الجولان، ويشير الكاتب إلة أن سبباً رئيسيا فى نشوب هذه الحرب كان تصاعد جماعات الفدائيين الفلسطينيين المسلحين خاصة بعد قيام إسرائيل بتحويل مياه نهر الأردن إلى وسط البلاد على الرغم من رفض الجماهير العربية.

ويشير الكاتب فى هذا إلى الدعم اللانهائى الأمريكى لإسرائيل، وبداية تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤، والتى أسستها الجامعة العربية بقيادة مصر لكى تشترك معها وتسيطر على المد المتصاعد لحماس الوطنية الفلسطينية، كما تم تكوين حركة فتح أكبر الفصائل الفلسطينية، والتى نادت بشن حملة من الكفاح المسلح المباشر ضد إسرائيل بدأته بهجوم فى الأول من يناير ١٩٦٥ لتعطيل محطة لضخ المياه فى وسط إسرائيل.وكان هجوماً رمزياً أكثر منه عملياً مثل كثير مما فعلته فتح فى تلك المرحلة، وسرعان ما تولى ياسر عرفات زعيم فتح رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية واحتفظ بالمنصب حتى وفاته فى ٢٠٠٤. وقد حققت منظمة التحرير الفلسطينية نجاحات دبلوماسية عديدة خاصة مع الدعم السوفيتى لها، وجهود فريق من الأكاديميين الفلسطينيين الأمريكان الذين كانوا على كفاءة عالية فى عرض الخطاب الفلسطينى فى الجامعات ووسائل الإعلام للرأى العام وحقق إدوارد سعيد بشكل خاص تأثير بالغ بعرضه قضية الفلسطينيين بشكل بليغ وبطرق لم يسمعها الجمهور من قبل.

يرى الكاتب أن انتصار إسرائيل فى حرب ٦٧ كان سبباً رئيسياً فى ظهور مقاومة فلسطينية أشد إصراراً وعناداً وكان ذلك انعكاساً حاداً لواحد من أعظم انتصارات إسرائيل فى الفترة من ١٩٤٨ – ١٩٦٧ حين كادت قضية وجود هوية فلسطينية تختفى تماماً، وكاد اختفاء الفلسطينيين أن يكون انتصاراً كاملاً ونهائياً للمشروع الصهيونى.

قادت تغيرات الظروف الإقليمية كثيراً من زعماء منظمة التحرير إلى تغيير أهدافهم تحت تأثير عدد من العوامل : عدم استطاعة منظمة التحرير الاستمرار بحملة عمل فدائى فعال ضد إسرائيل بعدما خسروا قواعدهم فى الأردن، وتزايد قبول الدول العربية للصراع مع إسرائيل ليس بشكل مصيرى بل بشكل صراع بين دول على حدود، والضغط الدولى والعربى على منظمة التحرير لكى تتوافق مع أهداف أكثر محدودية.

أعلنت جامعة الدول العربية فى مؤتمر القمة الذى عقد فى الخرطوم سنة ١٩٦٧ أنه لا سلام ولا اعتراف ولا مفاوضات مع إسرائيل «اللاءات الثلاث التى تم ترديدها فى الإعلام الإسرائيلى».

دعمت الولايات المتحدة أهداف إسرائيل فى ظل إدارات مختلفة مثل نيكسون وفورد وكيسنجر، ثم كارتر وفانس وبيرزينسكى، وخلال إدارة ريجان، كان الهدفان الرئيسيان فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط هو استمالة مصر، أهم دولة عربية بعيداً عن الاتحاد السوفيتى، مع عدم السماح للصراع فى الشرق الأوسط بتعقيد حالة الانفراج بين أمريكا والاتحاد السوفيتى. وبالنظر إلى أهمية هذه الأهداف الاستراتيجية بالنسبة لواشنطن فإن موقف منظمة التحرير الفلسطينية كان عقبة صغيرة نسبياً وكان هنالك كثير من الفرقاء فى الشرق الأوسط ممن ستسعدهم مساعدة أمريكا ف العمل ضد المنظمة. يشير الكاتب فى هذا الفصل إلى سعى أمريكا لعقد مؤتمر السلام متعدد الأطراف فى الشرق الأوسط وإصدار بيان مشترك مع الاتحاد السوفيتى فى أكتوبر عام ١٩٧٧ أشار إلى مشاركة جميع أطراف الصراع بمن فيهم «الشعب الفلسطينى» وأشار تصريح للرئيس كارتر قبل ذلك بشهور يدعو فيه إلى وطن للفلسطينيين وأظهر لهجة مختلفة فى واشنطن، لكن سرعان ما تخلت الإدارة الأمريكية عن دفعها للوصول إلى اتفاقية شاملة تحت ضغط من حكومة إسرائيل المنتخبة الجديدة لحزب الليكود بقيادة مناحم بيجن، وتخلت عن ضم الفلسطينيين إلى المباحثات، وتبنت بدلاً عن ذلك عملية كامب ديفيد الثنائية التى توصلت إلى اتفاقية سلام منفصلة بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، وقد تم التخطيط لهذه العملية من طرف بيجن لتجميد منظمة التحرير الفلسطينية والسماح باستيطان غير مقيد للأراضى المحتلة سنة ١٩٦٧ وتأجيل حل القضية الفلسطينية التى ظلت قيد الانتظار مدة عقد كامل، وبينما اعترض السادات والمسئولين الأمريكان على ذلك التجاهل

للقضية الفلسطينية التى كان كارتر قد أكد على أهميتها فى بداية رئاسته، غير أنهم أذعنوا فى النهاية، استعاد السادات سيناء لمصر فى الاتفاقية، أما بالنسبة لبيجن فقد رسخت اتفاقية السلام سيطرة إسرائيل على بقية الأراضى المحتلة وأخرجت مصر نهائياً من الصراع العربى الإسرائيلى، وبالنسبة للولايات المتحدة أكملت الاتفاقية انحياز مصر بعيداً عن الاتحاد السوفيتى إلى مخيم الولايات المتحدة ونزعت فتيل أخطر جوانب صراع القوى العظمى فى الشرق الأوسط.

الفصل الرابع : إعلان الحرب الرابع ١٩٨٢

يتناول الكاتب فى هذا الفصل غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ باعتباره نقطة تحول هامة فى الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، فهى أول حرب كبيرة منذ مايو ١٩٤٨ استهدفت الفلسطينيين وليس الجيوش العربية، وقد واجه الفدائيون الفلسطينيون قوات إسرائيلية فى معارك منذ منتصف الستينيات فى قرية الكرامة فى الأردن، وفى جنوب لبنان أواخر الستينيات والسبعينيات وبشكل مميز فى عملية الليطانى سنة ١٩٧٨، وخلال تبادل محموم لإطلاق الار عبر الحدود اللبنانية الإسرائيلية عام ١٩٨١، وعلى الرغم من المحاولات المتكررة لاستئصال منظمة التحرير إلا أنها أنشأت موقفاً قوياً فى لبنان سياساً وعسكرياً بحيث لم تتمكن عمليات محدودة من هذا النوع من إحداث تأثير مهم.

يرى الكاتب أن غزو لبنان ١٩٨٢ كان مختلفاً تماماً من حيث أهدافه ودرجته واستمراره والخسائر الثقيلة التى نتجت عنه وتأثيره على المدى البعيد، وأن أهم ما يميزه هو تركيزه الأساسى على الفلسطينيين وهدفه الأكبر فى تغيير الموقف داخل فلسطين من خلال تدمير منظمة التحرير عسكرياً ونزع قوتها فى لبنان ووضع نهاية لقوة الوطنية الفلسطينية فى الضفة الغربية المحتلة وفى قطاع غزة والقدس الشرقية، وهى الأهداف التى وضعها أصحاب نظرية إسرائيل الكبرى مثل شارون وبيجن وإسحاق

شامير. كان الهدف الرئيسى للحرب الإسرائيلية على لبنان هو الحاق الهزيمة بمنظمة التحرير الفلسطينية وطردها من بيروت، وفى الثانى عشر من أغسطس وبعد مباحثات ملحمية تم التوصل إلى شروط نهائية لانسحاب منظمة التحرير الفلسطينية ومغادرة بيروت، ترافق انسحاب آلاف المقاتلين وقوات منظمة التحرير بتدفق عريض للمشاعر فى بيروت الغربية حيث اصطفت جماهير تبكى وتغنى على طول الطريق الذى سلكته قوافل الشاحنات التى نقلت المقاتلين الفلسطينيين إلى الميناء، يراقبون منظمة التحرير الفلسطينية وهى تضطر للانسحاب من العاصمة اللبنانية مع زعمائهم وطواقمهم ومقاتليهم وهم متجهين نحو مستقبل مجهول، انتهى بهم المطاف متفرقين عبر البر والبحر إلى أكثر من ست دول عربية، وفى ١٤ سبتمبر تم اغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل زعيم القوات اللبنانية والكتائب فى انفجار ضخم دمر المكتب الرئيسى للكتائب، ودخلت القوات الإسرائيلية الجزء الغربى من المدينة واحتلت المقر الرئيسى لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وفى اليوم التالى اجتاحت بيروت الغربية بسرعة كبيرة وتغلبت على مقاومة متفرقة لمقاتلى حركة التحرير اللبنانية.

الفصل الخامس : إعلان الحرب الخامس ١٩٨٧ – ١٩٩٥

يشير الكاتب فى هذا الفصل إلى النتائج العكسية التى نتجت عن اجتياح لبنان للقضاء على قوة منظمة التحرير الفلسطينية، فبدلاً من أن ينهى هذا الاجتياح على المعارضة الوطنية الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة ويتم ضمهما لإسرائيل وبذلك تكتمل المهمة الاستعمارية للصهيونية التاريخية بتأسيس دولة يهودية على كامل الأراضى الفلسطينية، نجحت حرب ١٩٨٢ فى تقوية الحركة الوطنية الفلسطينية داخل فلسطين نفسها، ونقل مركز نشاطها من خارج البلاد إلى داخل البلاد وانطلقت الانتفاضة الأولى عفوياً فى كافة أرجاء الأراضى المحتلة بسبب صدم مركبة عسكرية إسرائيلية لشاحنة نقل فى مخيم جباليا للاجئين فى قطاع غزة وقتل ٤

فلسطينيين، وانتشرت الانتفاضة بسرعة كبيرة وواجهتها غسرائيل بقبضة حديدية أظهرت الوجه الحقيقى لإسرائيل كقوة احتلال قاسية، وأدت لرد فعل عنيف فى وسائل الإعلام الأمريكية بعد خمس سنوات فقط من التغطية الإعلامية لحصار وقصف بيروت، وجه هذا الكشف ضربة ثانية لصورة دولة تعتمد بشكل كبير على إرضاء الرأى العام الأمريكى.

يرى الكاتب أن الانتفاضة الأولى كانت مثالاً رائعاً للمقاومة الشعبية ضد الاضطهاد ويمكن اعتبارها أول نصر صريح للفلسطينيين فى حرب الاستعمار الطويلة التى بدأت سنة ١٩١٧، حيث كان لها تأثير موحد ونجحت إلى حد بعيد فى تجنب استخدام الأسلحة النارية والمتفجرات الأمر الذى ساعدها فى الحصول على إعجاب عالمى وصنع تأثيراً إيجابياً عميقاً على الإسرائيليين وعلى الرأى العام العالمى.

يتناول هذا الفصل أيضاً التوصل لإعلان المبادئ أوسلو ١ الذى تم توقيعه فى سبتمبر ١٩٩٣ فى حديقة البيت الأبيض، واعتراف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى واعتراف منظمة التحرير بدولة إسرائيل، إلا أن مشكلة أوسلو أن الشيطان يكمن فى تفاصيلها، ولم تكن الشخصيات الفلسطينية التى أرسلتها منظمة التحرير إلى أوسلو تهتم بالتفاصيل، ولم تكن لديهم الخبرات اللغوية أو القانونية أو الخبرات الأخرى اللازمة للفهم الدقيق بما كان يفعله الاسرائيليون.

إعلان الحرب السادس ٢٠٠٠ - ٢٠١٤

يشير الكاتب فى هذا الفصل إلى خيبة أمل الفلسطينيين بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، فقداعتقدوا فى البداية أن الاحتلال العسكرى سينتهى وسيتوقف نهب الأراضى لصالح المستعمرات الإسرائيلية، إلا أن الأحوال أصبحت أسوأ بالنسبة للجميع فيما عدا قلة من الأفراد الذين كانت مصالحهم الاقتصادية أو الشخصية متداخلة مع السلطة الفلسطينية والذين استفادوا من تطبيع العلاقات مع إسرائيل. أما بالنسبة للآخرين فقد

استمر رفض السماح لهم بالسفر ونقل البضائع من مكان لآخر مع خلق متاهة من نظام التصاريح ونقاط التفتيش والجدران والأسوار، من خلال سياسة إسرائيلية فصلت غزة عن الضفة الغربية التى كانت مفصولة أيضاً عن القدس، وتوسعت المستوطنات والطرق المخصصة للمستوطنين فيما بينها، وتقسمت الضفة الغربية بتأثير مدمر. ويتناول الكاتب بداية تأسيس حركة حماس فى بداية الانتفاضة الأولى فى ديسمبر ١٩٨٧ ونموها السريع مستفيدة من تيارات الاستياء الشعبى من منظمة التحرير التى برزت لأسباب مختلفة.فقد أصرت حماس أثناء الانتفاضة على الاحتفاظ بهوية منفصلة ورفضت الانضمام للقيادة الوطنية الموحدة، وطرحت نفسها كخيار إسلامى أكثر تشدداً من منظمة التحرير، واستنكرت التخلى عن الكفاح المسلح والتوجه نحو الدبلوماسية التى تم تبنيها فى إعلان الاستقلال الذى أصدره المؤتمر الوطنى الفلسطينى سنة ١٩٨٨. اعتقدت حماس أن استخدام القوة هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين وأكدت على المطالبة بجميع فلسطين وليس فقط بالأراضى التى احتلتها إسرائيل بعد ١٩٦٧.

وينتقل الكاتب إلى أحداث اشتعال الانتفاضة الثانية فى سبتمبر عام ٢٠٠٠ بسبب ازدياد سوء الأوضاع الفلسطينية بعد أوسلو وخيبة الأمل فى التوصل إلى دولة، والتنافس الشديد بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس، أدت هذه العوامل جميعها إلى خلق المادة المشتعلة التى تفجرت منها الانتفاضة والتى كانت تحتاج فقط لشرارة لكى تنفجر، وكانت الشرارة فى الزيارة الاستفزازية التى قام بها شارون إلى الحرم الشريف محاطا بمئات العناصر من الأمن. واستخدمت اسرائيل القوة المفرطة فى مواجهة الانتفاضة الثانية، ولجأت للأسلحة الثقيلة والمروحيات والدبابات مما سبب مزيداً من الإصابات بين الفلسطينيين. وقد شكلت الانتفاضة الثانية إخفاقا كبيراً للحركة الوطنية الفلسطينية وكانت نتائجها كارثية ومدمرة على الأرض المحتلة حيث أعاد الجيش الإسرائيلى احتلال العديد من المناطق التى

كان قد انسحب منها بعد أوسلو. يشير الكاتب إلى حدث آخر هام هو وفاة ياسر عرفات عام ٢٠٠٤ فى مستشفى بباريس فى ظروف غامضة، وحل محله محمود عباس رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح.

كما يشير الكاتب فى هذا الفصل إلى الحرب المستمرة فى غزة التى شملت اجتياحات برية إسرائيلية فى ٢٠٠٨،٢٠٠٩، ٢٠١٢، ٢٠١٤، وكانت تتخللها توغلات عسكرية فى الضفة الغربية والقدس الشرقية صاحبها عمليات اعتقالات واغتيالات وتخريب بيوت وقمع للسكان. وفى النهاية يؤكد الكاتب أن الحروب على غزة بالإضافة إلى حرب ١٩٨٢ فى لبنان والانتفاضة الأولى كانت نقاط تحول مهمة فى التغير المستمر لتصور الأمريكان عن الفلسطينيين وإسرائيل. إلا أن ذلك لم يظهر تغير مهم فى صنع السياسة الأمريكية ولا فى قوانين جديدة ولا فى السياق السياسى بشكل عام، وأحد أسباب ذلك يرجع إلى سيطرة الحزب الجمهورى على البيت الأبيض طوال الفترة من سنة ٢٠٠٠ فيما عدا ثمانى سنوات، وسيطرتهم على مجلس الشيوخ منذ ٢٠١٠ وعلى مجلس النواب من ٢٠١٤-٢٠١٨، وعلى كافة فروع الحكومة من ٢٠١٦ – ٢٠١٨، قاعدة هذا الحزب ونواته فى كثير من المناطق يؤيدون بحمية أكثر سياسات إسرائيل تشدداً.

الخلاصة : قرن من الحرب على الفلسطينيين

ينهى الكاتب بهذا الفصل رؤيته التى حاول توصيلها وهى أنه على مدار قرن كامل حاولت القوى العظمى التصرف على الرغم من الفلسطينيين، وبتجاهلهم وبالتفاوض بدلاً عنهم أو من فوق رؤوسهم، أو بادعاء عدم وجودهم، غير أن الفلسطينيين فى مواجهة احتمالات قوية ضدهم أظهروا قدرة عنيدة على مقاومة كل هذه الجهود لحذفهم سياسياً وتفريقهم فى الجهات الأربع، وأن الصهيونية رغم أنها نجحت فى تأسيس إسرائيل وتشكيل حركة قومية قوية إلا أنها لم تتمكن من إزاحة سكان البلاد الأصليين. ويرى أن تغير ترتيب القوى العظمى وزيادة نفوذ الصين والهند فى

الـشرق الأوسـط، وتراجـع النفـوذ الأمريـكى فى المنطقـة ربمـا تسـمح هـذه التغـيرات للفلسـطينيين مـع الإسرائيليـين بصياغـة توجـه يختلـف عـن قمـع أحد الشـعبين للآخـر، لأن مثـل هـذا التوجـه الـذى يرتكـز عـلى المسـاواة والعـدل هو وحـده الـذى يمكـن أن ينهـى حـرب المئـة عـام عـلى فلسـطين وتحقيـق سـلام دائـم يجلـب معـه التحريـر الـذى يسـتحقه الشـعب الفلسـطينى.